النص النقدي التراثي بين التحليل البلاغي والتحليل التداولي

أ . فتيحة حسين⋆

مقدمة :

لقد كان النص الأدبي ولا يزال قبلة العديد من الدارسين قديما وحديثا، للولوج إلى عالمه والغوص في مكنوناته، والكشف عن الغامض والمجهول في لغته التي لازالت تتستر على مدلولات ومعاني لطالما تسارعت المناهج النقدية والتحليلية القديمة والحديثة إلى سبق الكشف عنها، وقد كانت المعالجة البلاغية السباقة إلى احتواء النص الأدبي وتحليله وفق أسسها ومبادئها، وقد لقيت رواجا كبيرا في العهود الأولى من تاريخ المناهج النقدية، إلاّ أنه بالرغم من تمكنها النسبي من تقريب النص الأدبي من المتلقي إلاّ أنّ ذلك لم يشفع لها عند بعض الدارسين المحدثين الذين نددوا بالقصور الذي يعتريها- حسب زعمهم - والمتمثل في تجاهلها للكثير من الجوانب الأساسية في النص الأدبي، فدعوا بناء على ذلك إلى تبني المناهج النقدية اللغوية الحديثة والمعاصرة لأنها الأكثر إضاءة للنص الأدبي . ومن جملة تلك المناهج الحداثية : البنيوية، الأسلوبية، السيميائية، التداولية. . .

إلاّ أنّ المتمعن في هذه المناهج، والعائد إلى جذورها الأولى، والمدقق في منطلقاتها ومبادئها، سيقف عند حقيقة الصلة الوثيقة بين هذه المناهج اللغوية الحداثية والمعالجة البلاغية، بل سيكتشف أن المعالجة البلاغية هي الحجر الأساس الذي تقوم عليه بقية المعالجات النقدية اللغوية المعاصرة، وهذا ما لمسناه بالفعل أثناء تتبعنا لمسار المعالجة التداولية، فالمكتشَف في هذه المقاربة، صلتها الوثيقة واللامحدودة بالبلاغة، وما هذا إلاّ دليل على استمرارية المعالجة البلاغية في صلب المناهج الحداثية . وللتوضيح أكثر كان لزاما علينا طرح جملة من الأسئلة لتكون بوابة للدخول إلى هذه الدراسة المعنونة بـ =النص النقدي التراثي بين التحليل البلاغي والتحليل التداولي، ومنها : ما المقصود

⋆ جامعة البويرة .

بالمعالجة البلاغية ومن روادها من العرب ؟ وما المقصود بالمعالجة التداولية؟ ما مفهوم التداولية عند الغرب؟وهل هناك من جذور لهذا المنهج في التراث العربي؟ وهل هناك من نقاط التقاء تجمع بين هاتين المعالجتين =البلاغية والتداولية+ ؟ وفي الأخير : ما مصير المعالجة البلاغية في يومنا هذا، هل الحركة والاستمرارية أم الجمود والزوال؟

أولا : التحليل البلاغي للخطاب :

1. مفهوم البلاغة لغة :

عرفت البلاغة في اللغة على أنها =الوصول والانتهاء، يقال : بلغ فلان مراده ـ إذا وصل إليه، وبلغ الركب المدينة ـ إذا انتهى إليها، ومبلغ الشيء : منتهاه.+(1)

2. مفهوم البلاغة في اصطلاح النقاد العرب القدامى :

يعدّ ابن المقفع (ت 143هـ)، من الأوائل الذين تحدثوا عن البلاغة، إذ عرفها حينما سئل عن مفهومه لها، بقوله : =البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون شعرا، ومنها مل يكون شجعا وخطبا ومنها ما يكون رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة.+(2)

والملاحظ في هذا النص أنّ ابن المقفع ركز في تعريفه على محورين أساسين، يتعلق أولهما بالجانب العقلي وربطه بالبلاغة، حين قال : =منها مل يكون في السكوت. . في الاستماع. . في الإشارة ..+والملاحظ على هذه المفردات أنّها مفردات مرتبطة بالفعل أكثر من ارتباطها بالكلام، إلى جانب مفردات أخرى ذكرها ابن المقفع وهي مرتبطة بالحجج، والبراهين والمنطق، حين قال : =ومنها ما يكون في الاحتجاج. . في الجواب. . . خطبا. . . شعرا،، ،+ وهو يقصد في جميع ذلك الإيجاز الذي عرّفه العرب في ممارساتهم اللغوية .(3)

---

(1) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، في المعاني والبيان والبديع، مكتبة الآداب، دط، دب، 1994، ص 29 .

(2) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح : عبد السلام محمد بن هارون، ج1، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، ط7، القاهرة، 1998، ص ص 115- 116 .

(3) ينظر : شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، ط9، القاهرة، ص ص 20– 21 .

و أورد الجاحظ قولا للعتابي جاء فيه : =كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ.+(1) فالبلاغة حسبه حسبهتتحقق في تأدية المقصدية بأداء كلامي فصيح، ومفهوم خال من التنافر والتعقيد والغموض والتكرار . فالبلاغة عند القدماء تتمثل في إيصال المعنى إلى المخاطب عبر خطابات مختلفة تتوفر فيها السمات التعبيرية البلاغية، مع أهمية العمليات الذهنية في تكوين المعنى، إلى جانب الهيئة اللسانية التي يصاغ فيها المعنى، فكل كلام توفر فيه هذين المبدأين يكون قابلا لتحقق سمة البلاغة فيه، والتي تجعله مختلفا عن الكلام العادي، وهذا ما يؤدي إلى أن يكون لهذا الكلام أثر قوي في المخاطب =ففي النموذج البلاغي يحتل متلقي الخطاب المقام الأول بدون منازع+ (2) فلا يمكن وضوح المعنى إلا بوجود عناصر الخطاب ومدى ملائمة الكلام للمقام الذي ينشأ فيه للوصول إلى تحقيق عملية الإفهام والتواصل، وتلك العناصر قد أشار إليها الجاحظ، في حديثه هن صحيفة بشر بن المعتمر، فقد تنبه بشر بن المعتمر إلى أهمية المقام في حصول الصواب والإفادة في القول، حيث قال : =. . . وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال.+(3)، فالدرس البلاغي عند العرب مؤسس على اشتراط موافقة الكلام لمقتضى الحال، وتوجيه الاهتمام إلى كيفية تشكيل السياق الخطابي استنادا إلى جميع الأوضاع المؤثرة في توجيه هذا السياق وجعله مستوى المقام المحيط به، فيكون لوضع المخاطب أثر كبير في توجيه أو تكوين خطابه ليصل إلى درجة تحقيق الانسجام والتوافق الذهني والموقفي في الخطاب مع العناصر المساهمة في عملية التواصل .

ثانيا : التحليل التداولي للخطاب :

1 : التداولية عند الغرب : النشأة والمفهوم :

1- أ ـ الخلفية المعرفية لنشأة للتداولية :

تطورت الدراسات في المجال اللساني وعرفت نقلات معرفية

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1،، ص113 .
(2) هنريش بليث، البلاغة نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، تر : محمد العمري، إفريقيا الشرق، دط، دب، 1994، ص24 .
(3) الجاحظ، البيان والتبين، ج1، ص132 .

جذرية، فبعد أن كان كثير من اللسانيين يهتمون بالبنى اللغوية من حيث تركيباتها ودلالاتها، راح الدرس اللساني الحديث يهتم بجانب آخر يطلق عليه في البحوث الأنجلوساكسونية مصطلح البراغماتيك (Pragmatique)، ويعود الفضل في ظهور هذه الدراسة إلى الدور كبير والجهود العظيمة التي قام بها العالم الفيلسوف فيتغنشتاين (l . wittgenstein) وقد عكف هذا العالم في أبحاثه على توضيح منطق اللغة الحية المستعملة البسيطة، منطلقا من مبدأ أساسي أثناء عملية التواصل بين البشر والذي مفاده =أن نراعي نوعا معينا من استخدام اللغة عندما يرتبط بعضنا بالبعض الآخر على نحو معين، بوصفنا كائنات بشرية.+(1)

و في معرض حديثه عن مقومات الاستدلال l´infèrence، أوضح هذا الفيلسوف أنّ الشخص الذي يساهم في العملية التواصلية يستهل حديثه على أساس المعايير العقلانية التي يخضع لها هو أولا، خلافا لمن يتورط في التهديد أو الكذب، وبناء عليه تكون معايير نجاح أيّ عملية تواصلية ما متمثلة في : الاستعداد للإنصات، قبول البدائل، الوضوح، المعقولية . (2)

لتلقى هذه التصريحات آذانا صاغية في مجالي فلسفة اللغة واللسانيات التداولية، لعلّ أشهرها مقالة غرايس (H . P . grice) بعنوان =المنطق والمحادثة+(3)، وقد تفرّعت عن مبدأ التعاون المعروض في تلك المقالة قواعد حوارية محادثية كثيرة وأريد بها أن تكون بمثابة ضوابط قارّة تضمن لكل مخاطب تواصلا يبلغ الغاية في الوضوح، بحيث تكون المعاني والإفادات التي يتناقلها أطراف العملية التخاطبية معاني صريحة وهادفة وواضحة .

وقد عدّ هذا الفيلسوف الأمريكي عرّاب التداولية، كما وقد عدت محاضراته WILLIAM JAMES LECTURES التي جمعت ونشرت عام 1989 منطلقا للدراسة التداولية .

1- ب - مفهوم التداولية :

إنّ التقاء التداولية مع منظومة من العلوم جعل الجانب المفاهيمي

(1) l . wittgenstein , investigations philosophiques , p76 .

(2) Ebid , p71 . 1

(3)H . P . Grice, Logique et conversation in : L´information gramaticale n°66 , Paris , 1955,P P 51 - 71

لها يمتاز بالثراء والتشعب من باحث لآخر، إذ ظهرت تعريفات مختلفة لها، وهاهو دومينيك مانغونو يتحدث عن هذا الثراء المفاهيمي بقوله أنها نابعة من كون التداولية =ملتقى لمصادر أفكار وتأملات مختلفة يصعب حصرها .+(1) مما خلق عائقا أمام الباحثين في التواضع على مفهوم واحد لها، وقد اشتق مصطلح التداولية (Pragmatique) من الأصل اليوناني (Pragma) الذي يعني العمل (Action)، ومنه اشتقت الميزة اليونانية (Pragmatikos) التي تحيل إلى كلّ ما يتعلق بمعاني العمل . (2)

وتمّ تداول هذا المصطلح لأول مرة في القرون الوسطى في فرنسا، في مجال الدراسات القانونية، مثل عبارة (Pragmatique Sanction)، وابتداء من القرن 17م شاع هذا المصطلح في الميدان العلمي، فصارت التداولية تعني كل بحث أو اكتشاف من شأنه أن يؤول إلى تطبيقات ذات ثمار عملية . وتجدر الإشارة إلى أنّ استعمال المصطلح (Pragmatique) في المجال الفلسفي إنما هو لوصف كل فكرة أو ظاهرة لا تتجلّى إلاّ من خلال تطبيقاتها العملية أي نتائجها وآثارها المنعكسة على الواقع . (3)

ومن لغويّ الغرب الذين قدّموا مفهوما لهذا المصطلح تشارلس موريس عام 1938، حيث عرفه على أنّه =دراسة للعلاقة التي تربط العلامات بمؤوليها+ (4) مستعملا مصطلح مؤول بالمعنى الذي قدّمه بيرس (Peirse)، مميزا بين ثلاث مجالات محيطة بأية لغة :

ـ علم التركيب الذي يعنى بعلاقات الأدلة فيما بينها .

ـ علم الدلالة الذي يعالج علاقات الأدلة بالواقع .

ـ التداولية التي تهتم بالعلاقات القائمة بين الأدلة ومستعمليها واستعمالها وآثارها من حيث معناها الضيّق . (5)

كما وقد توصل بعض الدارسين بعد الوقوف عند المراحل الأولى

---

(1) Dominique Maingueneau : Pragmatique pour le discours Littèraire, NATHAN, PARIS , 2001, P1 .

(2) الطاهر لوصيف، التداولية اللسانية، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، جانفي 2006، ص6 .

(3) المرجع نفسه، ص 7 .

(4) دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر : محمد يحياتن، منشورات الإختلاف، ط1، الجزائر، \2005، ص92 .

(5) دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر : محمد يحياتن، ص92 .

من نشوء التداولية إلى أنّها كانت =في بداية الأمر إحدى الفروع الثلاثة المكونة للسيميولوجيا وهي العلاقات أو الرموز ودلالتها، وعمليات التوصيل، فكانت التداولية تعنى بهذا القسم الأخير، إلى جانب النحو الذي يقوم بتحليل العلاقات بين العلامات وعلم الدلالة الذي يحلل صلة العلامات بالمدلولات والواقع، ولهذا فإنّ التداولية اهتمت أولا بوصف العلاقة بين العلامات ومن يستخدمونها. ..+(1)، والملاحظ من هذا التعريف التقاء التداولية بعلمي النحو (Syntax) والدلالة (Semantics) أثناء عملية تحليل لغة النص الأدبي، إلاّ أنها في حقيقة الأمر تختلف عنهما في كونها =تهتم بدراسة العلاقات بين الصيغ اللغوية ومستخدمي هذه الصيغ.+(2) فنقطة ارتكاز التداولية أثناء عملية تحليلها للغة هي ثنائية : المتكلم أو المخاطب (بكسر الطاء) واللفظة اللغوية .

فصحيح أنّ التداولية هي فرع علميّ من مجموعة العلوم اللغوية، إلاّ أنّها تتميز عن سائر العلوم اللغوية الأخرى بكونها فرع =يختص بتحليل عمليات الكلام بصفة خاصة، ووظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام، هذا العلم الذي أخذ ينمو في العقود الثلاثة الأخيرة فحسب، ذو طبيعة+ عبر تخصصية =تغذيه جملة من العلوم من أهمها : الفلسفة وعلم اللغة، والأنثربولوجيا، وعلم النفس، والاجتماع. ..+(3)

1- ج ـ اهتمامات التداولية :

من مظاهر التطور الحاصل في اللسانيات في العصر المعاصر إعادة النظر في منزلة التداولية، فبعد أن كانت تعرف ب =سلة مهملات+ كونها مصير المسائل التي يستعصى حلّها في النحو والدلالة، شهدنا تحولا جذريا في الرؤية التداولية، ويعود الفضل في ذلك إلى فلاسفة اللغة كبيرس وموريس وكارناب، وفلسفة اللغة العادية لمدرسة أوكسفورد التي ينتمي إليها أوستن وسيرل، ثمّ واصل أ . ديكرو وهرمان باريه وغيرهما العمل على هذا الأساس لتحظى التداولية باهتمام بالغ من طرف العديد من الدراسين، نظرا لما قدّمته من نتائج متقدمة في مجال تحليل الخطاب الأدبي، وانطلاقا من موقفها ورؤيتها الخاصة لهذا

(1) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص31 .
(2) المرجع نفسه، ص20 .
(3) المرجع نفسه، ص ص 30- 31 .

الخطاب، وسيقف الباحث عند هذه الرؤية الخاصة على اهتمامات المعالجة التداولية أثناء تعاملها مع الخطاب الأدبي، فهي تسعى إلى =دراسة المعنى كما يوصله المتكلم ويفسره المستمع، لذا فإنها مرتبطة بتحليل ما يعنيه الناس بألفاظهم أكثر من ارتباطها بما يمكن أن تعنيه كلمات أو عبارات هذه الألفاظ منفصلة، التداولية هي دراسة المعنى الذي يقصده المتكلم.+(1)

فالوصول إلى المعنى المقصود هو الهدف الأول للمقاربة التداولية، وهذا المعنى يتحكم فيه عدّة عوامل منها السياق، وهو ما تفطنت له التداولية وجعلته الهدف الثاني في مجال دراستها، ساعية بذلك إلى =تفسير ما يعنيه الناس في سياق معين وكيفية تأثير السياق في ما يقال، كما يتطلب أيضا التمعن في الآلية التي ينظم من خلالها المتكلمون ما يريدون قوله وفقا لهوية الذي يتكلمون إليه، وأين، ومتى، وتحت أية ظروف . التداولية هي دراسة المعنى السياقي.+(2) .

وتوصلت التداولية أثناء وقوفها عند أثر السياق في عملية التخاطب إلى أن الخطاب الأدبي يحمل بين ثناياه الكثير من المعاني التي قد يستعصى على المتلقي الوصول إليها بسهولة، وسعيا منها إلى تقليص الهوة ـ ولا نقول إلغاء ـ الموجدة بين الثنائية : الخطاب الأدبي/ المتلقي حاولت البحث =في كيفية إدراك قدر كبير مما لم يتّم قوله على أنه جزء مما يتّم إيصاله، بإمكاننا القول أنه دراسة المعنى غير المرئي Invisible Meaning . التداولية هي دراسة كيفية إيصال أكثر مما يقال.+(3)

وقد أدى هذا الاهتمام بالقول المرئي أو ما يسمى في حقل التداولية ب =الضمني+ إلى =التساؤل حول ما يمكن أن يحدد ما يقال وما لم يتم قوله، ويرتبط الجواب الرئيس بمفهوم التباعد Distance، ينطوي القرب المادي أو الاجتماعي أو المفاهيمي على خبرة مشتركة حيث يحدد المتكلمون مقدار ما يحتاجون قوله بناء على افتراض قرب المستمع أو بعده . التداولية هي دراسة التعبير عن التباعد النسبي.+(4)، وبالتالي

(1) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 19 .
(2) المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
(3) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
(4) جورج يول، التداولية، تر : قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، دار الأمان، ط1، الرباط، 2010 ص ص19- 20 .

فالمنظور التداولي يميل إلى =التركيز خصوصا على ما لم يتم قوله وما لم يكتب (بالرغم من إيصاله) ضمن الخطاب المراد تحليله، ولكي ننجز تداولية خطاب معين علينا تخطي الاهتمامات الاجتماعية الابتدائية للتفاعل وتحليل المحادثة، والنظر خلف الأشكال والبنى الواردة في النص، والتركيز على مفاهيم نفسية مثل المعرفة الخلفية والمعتقدات والتطلعات، ففي تداولية الخطاب نكون مجبرين لا مخيرين على استطلاع ما في ذهن المتكلم أو الكاتب.+(1)

ومن ثمة فالمعالجة التداولية للخطاب الأدبي تقف عند أهم النقاط الأساسية في الخطاب الأدبي وهي كالتالي :

- المعنى المقصود .
- السياق .
- الكلام الضمني .
- التباعد النسبي للمخاطب من الخطاب الموجه إليه .

وانطلاقا من هذه النقاط الأساسية نلمس أهمية المعالجة التداولية والمتمثلة في كونها =تهتم بالأسئلة الهامة والإشكاليات الجوهرية في النص الأدبي المعاصر، لأنها تحاول الإحاطة بعديد من الأسئلة، من قبيل : من يتكلم وإلى من يتكلم؟ ما نقول بالضبط عندما نتكلم؟ ما هو مصدر التشويش والإيضاح؟ كيف نتكلم بشيء ونريد قول شيء آخر؟. ..+(2)

2- التداولية عند العرب : الجذور والمفهوم :

2أ. الجذور العربية للتداولية :

لقد تناولت الكثير من المصادر العربية مسائل تعتبر من صميم المباحث التداولية، إن لم نقل أنّها ربما تتجاوز ما تطرحه الدراسات النظرية التداولية الحديثة، ومنها نذكر : =دلائل الإعجاز+ لعبد القاهر الجرجاني، =البيان والتبيين+ للجاحظ، =التفسير الكبير+ لفخر الدين الرازي، =مفتاح العلوم+ للسكاكي، وبصفة خاصة =كتب الأصول+

(1) المرجع نفسه، ص 128 .
(2) فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر : سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، بيروت، د ت، مقدمة المترجم، ص4 .

كالرسالة =للشافعي وأصول السّرخسي .، وتميزت دراسة اللغة في هذه المصادر وغيرها بعض السمات التي هي من أهمّ المبادئ التداولية الحديثة، فقد تناول الدارسون القدماء مثلا أنّ التكلم يتمّ لغايات وأهداف أو إشباع حاجات أو الحصول على الفائدة، إضافة إلى البلاغة العربية التي لم تغفل دور المتكلم في صياغة الخطاب والإلمام بكل العناصر الفاعلة في الإبلاغ والمطابقة مع الواقع وعدمه، بل إنها تعتمد مبدأ =لكل مقام مقال+، ومن أهم مصادر التفكير التداولي اللغوي عند العرب : علم البلاغة والنقد والنحو والخطابة، إضافة إلى ما قدمه علماء الأصول .

وقد رأى طه عبد الرحمن أنّ المنهج التداولي من أهمّ ما يستند إليه في تقويم الدراسة التراثية، لما يتميز به من قواعد محددة وشرائط مخصوصة وآليات صورية، فيقول : =لا سبيل إلى معرفة الممارسة التراثية بغير الوقوف على التقرير التداولي الذي يميز عن غيره من طرق معالجة المنقول، باستناده إلى شرائط مخصوصة يفضي عدم استبقائها إلى الإضرار بوظائف المجال التداولي، فضلا عن استناده إلى آليات صورية محددة.+(1)

والملاحظ أن البلاغة العربية عند القدماء لم تكن فكرا جماليا بحتا، وإنما ارتبط وجودها بالوظيفة التداولية، فالدراسة البلاغية إنما تنصرف إلى الكشف عن الأثر الذي يحدثه النص في المتلقي، فهي لا تتعلق عندهم =بدراسة وصفية تهتم بالعملية في شروطها الموضوعية التاريخية، بل يهتمون بالأثر الذي تتركه الرسالة أو ينبغي أن تتركه، وكيف يكون الخطاب ناجعا، ومن ثمّ تصبح البلاغة سلطة أمام النص.+(2)

2.ب. مفهوم التداولية :

حدد طه عبد الرحمن المعنى الاصطلاحي =للتداول+ قائلا : =هو وصف لكل ما كان مظهرا من مظاهر التواصل والتفاعل بين صانعي التراث من عامة الناس وخاصتهم.+(3)

(1) طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ص16 .
(2) محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 287 .
(3) طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ص244 .

ثالثا : علاقة التداولية بالبلاغة ومكمن الترابط بينهما :

1. علاقة التداولية بالبلاغة :

إن المتتبع لمسار البلاغة ومفهومها وكذا التداولية وأهم خصائصها سيقف حتما عند أواصر الترابط بين المنهجين، والتي تمتد جذورها في التراث العربي والغربي على السواء، ففي التراث الغربي نجد أن البلاغة قد اقترنت بعلم الخطابة وقد عرفها قدماء اليونان والرومان على أنها مجموعة من القواعد التي من شأنها أن تجعل الكلام يتمتع بالقدرة على إحداث الأثر في نفوس المتلقين وإقناعهم وقد قسموها إلى ثلاث أقسام هي : الخطابة التداولية وهي التي يراد بها إقناع السامعين بتفضيل منهج على غيره في العمل أو الرأي، والخطابة القضائية التي تشمل وسائل الاتهام والدفاع أمام القضاء، والخطابة البيانية وهي التي تشمل التقريظ والتقريع . (1) ويعتبر أرسطو في هذا المجال رائد الدرس البلاغي التداولي، حيث يعدّ كتابه =الخطابة+ من المؤلفات التي لها دور الريادة في الكشف عن الأبعاد التداولية للخطاب التداولي .

وإذا كانت التداولية في أوجز تعريفاتها هي دراسة مناحي الكلام، أو دراسة اللغة حين الاستعمال، فإنّ البلاغة هي المعرفة باللغة أثناء استعمالها، وبكلمة هي =فن القول+، ويشمل هذا التعريف الموجز مجالين واسعين من مجالات اللسانيات التداولية (2) :

1- الفن : كل ما يرتبط بالذوق، والاستخدام الشخصي للغة، أي أنه يقابل آثار المتكلمين على كلامهم، وكيف يمكن للمتكلم أن يعدّل من موقف سامعه، وهو مجال التداولية الأوسع الذّي حدده (بيرس) في دراسة العلامات وعلاقة العلامات بمستعمليها .

2- قول : يشمل الأداء الفعلي للغة؛أي اللغة في واقع استعمالها، وذاك ما حمل محمد العمري على عدم التمييز بينهما ؛يقول : =وحديثا، يعاد الاعتبار إلى البلاغة العربية في الدراسات السيميائية تحت عنوان

(1) ينظر : مجدي وهبة، معجم مصطلحات الأدب (إنجليزي، فرنسي، عربي)، مكتبة لبنان، بيروت، 1974، ص477 .
(2) ينظر : صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص154 .

جديد : التداولية+.+(1)

وقد لاحظ خليفة بوجادي انطلاقا من اهتمامات كل من المعالجتين أنّ =البلاغة أحسن ما يتناول إبراز العلاقات التداولية في اللغة، لأنها تهتم بدراسة التعبير على مختلف مستوياته : اللفظية، التركيبية، الدلالية والعلاقات القائمة بينها.+(2) وهو ما وافقه عليه ليتش (leitch) الذي أكّد بدوره =أنّ البلاغة تداولية في صميمها، إذ أنّها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع، بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما.+(3)، أمّا هنريش بليث فقد توصل إلى أنه =عندما نفكر حسب المفاهيم البلاغية فإننا ننظر مبدئيا إلى النص من زاوية نظر المستمع/ القارئ، وتجعله تابعا لمقصدية الأثر.+(4) ليعقد صلاح فضل رؤية جامعة بين الآراء مفادها أنّ =البلاغة والتداولية البراغماتية تتفقان في اعتمادهما على اللغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقي على أساس أنّ النص اللغوي في جملته إنما هو نص في موقف.+(5)

2. مكمن الترابط بين البلاغة والتداولية :

2 ـ أ ـ السياق :

من أبرز عناصر الترابط بين البلاغة القديمة والتداولية أو البلاغة الجديدة كما تلقب، =سياق التخاطب+، ويتضمن كل ما يتعلق بأوضاع المتخاطبين، وهو ما جعل صلاح فضل يقف عند نقاط تلاقي البلاغة والتداولية في منعرج الاستعمال والذي يرتبط بالمقام، فهو استعمال اللغة بحسب السياق لحدوث التواصل، وكذا بكيفية إيصاله للطرف المستقبل، مما أمكن من نعت البلاغة =بفن القول بشكل عام+ أو =فن الوصول إلى تعديل موقف المستمع أو القارئ.+(6)، وقد أرجع خليفة بوجادي عبارة =البلاغة فن القول+ إلى ارتباطها بالذوق والاستخدام وهو ما

(1) محمد العمري، البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، ط2، الدار البيضاء، المغرب، 2010، ص214 .
(2) خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2009، ص 154 .
(3) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 121 .
(4) هنريش بليث، البلاغة نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ص24 .
(5) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 121 .
(6) المرجع نفسه، ص121 .

=يقابل آثار المتكلمين على كلامهم وكيف يمكن للمتكلم أن يعدّل من موقف سامعه.+[1] فالخطاب الأدبي إذن خطاب مقصدي موجه، يحمل هدفا في ذاته، وهو التأثير الذي يتوخاه صاحب الكتاب في متلقيه، وهو ما يتأتى لنا دراسته من خلال =تجاوز وصف الخطاب وصفا شكليا وعدم الاكتفاء بالوقوف عند بيان علاقة وحدات الخطاب بعضها البعض وتحليلها، والدعوة إلى ضرورة الاعتناء بدور عناصر السياق ومدى توظيفها في إنتاج الخطاب وفي تأويله.+[2]

وانطلاقا من أنّ التداولية تريد الإجابة على حدّ قول فرانسواز أرمينكو عن جملة من الأسئلة : من يتكلم؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ وإلى من نتكلم؟ماذا علينا أن نعلم حتى يرتفع الإبهام عن جملة أو أخرى؟كيف يمكننا قول شيء آخر غير ما نريد قوله؟هل يمكننا الركون إلى المعنى الحرفي لقصد ما؟ ما هي استعمالات اللغة؟أي مقياس يحدد قدرة الواقع الإنساني اللغوية؟ [3]، يقرر الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن وتأسيسا لتداولية الخطاب =أنّ كل منطوق به يتوقف وصفه بـ =الكلام+ على أن يقترن بقصد يتمثل في تحصيل الناطق لقصد التوجه بمنطوقه إلى الغير، ولقصد إفهامه بهذا المنطوق معنى ما، فاعرف أنّ المنطوق الذي به يصلح أن يكون كلاما هو الذي ينهض بتمام المقتضيات التواصلية الواجبة في حقّ ما يسمى =خطابا+، إذ حدّ الخطاب أنّ كل منطوق به موجه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا.+[4] ومن ثمة فإن حقيقة الكلام لا تبين من تحقق لفظه، وإنما وإنما من خلال العلاقة التخاطبية =فلا كلام من غير تخاطب، ولا متكلم من غير أن تكون له وظيفة المخاطب، ولا مستمع من أن تكون له وظيفة المخاطب (بفتح الطاء).+[5]

و لقد أدرك البلاغيون منذ القديم أهمية السياق مشيرين إليه من خلال مقولتهم الدقيقة بأن : =لكل مقام مقال+، و=لكل كلمة مع صاحبتها

(1) خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص155 .
(2) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، لبنان، 2003، ص38 .
(3) ينظر : فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر : سعيد علوش، ص7 .
(4) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي،، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1998 ص 215 .
(5) المرجع نفسه، ص 215 .

مقام+ فانطلقوا في مباحثهم حول فكرة السياق وربطها بالصياغة اللفظية، وأصبح مقياس الكلام في باب الحسن والقبول بحسب مناسبة الكلام لما يليق به، أي مقتضى الحال . يقول السكاكي : =فإن كان مقتضى الحال اطلاق الحكم فحسن الكلام تجريده من مؤكدات الحكم، وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك فحسن الكلام تحلّيه بشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفا وقوة، وإن كان مقتضى الحال طيّ ذكر المسند إليه فحسن الكلام تركه، وإن كان المقتضى إثباته على وجه من الوجوه المذكورة فحسن الكلام وروده على الاعتبار المناسب، وكذا المقتضى ترك المسند فحسن الكلام وروده عاريا عن ذكره. ..+(1) فمكمن حسن الكلام هو في مدى ملائمته للسياق الذي عرض فيه .

وكانت فكرتا الحال والمقام في مفهوم البلاغيين =مرتبطتان بالبعد الزماني والمكاني للكلام، وذلك أنّ الأمر الذي يدعو المتكلم إلى تقديم صياغته على وجه معين، إمّا أن يتصل بزمن هذه الصياغة فيسمّى الحال، وإمّا أن يتصل بمحلّها فيسمى المقام؛لأن لكل كلام لابد من بعد زماني وبعد مكاني يقع فيه، ومن هنا ارتبطت فكرة الحال والمقام بالمقال، واختلاف صور هذا المقال يعود بالضرورة إلى اختلاف الحال والمقام.+(2)

أمّا في الدراسات التداولية فقد اتسع مفهوم السياق، حيث عدتّه أساسا من أسسها المتينة، ولهذا فقد تجاوز الباحثون التعريف النموذجي الذي مفاده أنّه =تلك الأجزاء من الخطاب التي تحفّ بالكلمة في المقطع وتساعد في الكشف عن معناها. ..+(3) إلى التعريف الأرحب له، فأصبح يعرف على أنّه =مجموعة الظروف التي تحفّ حدوث فعل التلفظ بموقف الكلام [. . .] وتسمى هذه الظروف في بعض الأحيان بالسياق Contexte.+(4)

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ص73 .
(2) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط1، مصر، 1994، ص306 .
(3) Clark . Herbert . H، Arnas of Language Use، P60 . نقلا عن : عبد الهادي بن ظافر الشهري، ص40 .
(4) Oswald Ducrot and Tzvetan Todorov, Encyclopedic dictionary of the sciences of language, P333

و لقد قارب الكثير من الدارسين حديثا بين المفاهيم التداولية الحديثة وبين فكرة مقتضى الحال في البلاغة العربية، منهم صلاح فضل، حيث يقول : =ويأتي مفهوم التداولية هذا ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة، بعبارة (مقتضى الحال)، وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية، لكل مقام مقال.+(1)

ففكرة مقتضى الحال تداولية، أساسا حيث نتجت في الشروط التي يكون بها الخطاب مطابقا للحال التي يستخدم فيها بين المتكلم والسامع، ومختلف الملابسات التي تكتنف ذلك، وتقوم البلاغة في مجموعها على هذه الفكرة لدى الكثيرين، ورد في الإيضاح : =وأمّا بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته.+(2)

ومن أول النصوص العربية التي اهتمت بمقتضى الحال، ما أورده الجاحظ من حديث بن الالمعتمر : =وإنما مدار الشرف (شرف المعنى) على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال.+(3) فشرف المعنى ووجه قبوله قائم على صوابه وصحته، مع ما يقدمه من فائدة للمخاطب، وهذا هو مبدأ المنفعة، أحد أسس التداولية اللسانية الحديثة إلى موافقته الكلام لمقام المخاطب وحاله، فتتلخص في العبارة الشهيرة =لكل مقام مقال+، حيث : =ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، يوازن بينها وبين أقدار السامعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات.+(4) فمن أجل إحراز المنفعة وفائدة المخاطب، يوازن المتكلم بين المعنى والمخاطب والحال بمقدار .

2ـ ب ـ مبدأ القصدية ومراعاة المتكلم بين النظرية البلاغية والتداولية :

(1) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص26 .
(2) القزويني محمد بن عبد الرحمن بن عمر الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح : محمد عبد المنعم خفاجي، منشورات دار الكتاب اللبناني، ط5، بيروت، لبنان، 1980، ص80 .
(3) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص136 .
(4) المصدر نفسه، ص ص 138- 139 .

يعد الجاحظ أول من أرسى دعائم التداولية في البلاغة العربية، وذلك من خلال تأكيده الدور التداولي للخطاب، وقد ظهر اهتمام الجاحظ في كتابه البيان والتبيين بقصدية الخطاب البلاغي الذي لا يكتفي بتحقيق شروطه الجمالية البحتة، وإنما يتعدى ذلك إلى تحقيق أهدافه النفعية من خلال إحداث التجاوب مع المتلقي، وفي هذا الشأن ينبني مفهومه للبيان على أساس تداولي، فيقول : =البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل لأن مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسامع، وإنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع.+(1) فماهية البيان حسب الجاحظ ترتبط أساسا بعملية الفهم والإفهام .

كما تتكشف لنا صورة التداولية عند الجاحظ من خلال احتجاجه بما جاء على لسان العتابي الذي قال في تعريفه للبلاغة : =إن كل ما أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة، ولا استعانة فهو بليغ، فإن أردت اللسان الذي يروق الألسنة، ويفوق كل خطيب، فإظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق.+(2) .

يشير محمد العمري في معرض حديثه عن مراعاة المقام والحال إلى ضرورة مراعاة المتكلم للمتلقي أثناء تواصله اللغوي معه، فيقول : =فالبلاغيون العرب وإن لم يهتموا كثيرا بالدراسة النفسية والأخلاقية للمرسل والمتلقي، حاولوا أن يدرجوا تحت عنوان المقام والحال ملاحظات كثيرة فيما ينبغي للخطيب أن يكون عليه أو يراعيه من أحوال السامعين.+(3)

وكثيرا ما فصل بين بلاغة الكلام وبلاغة المتكلم، فالبلاغة في المتكلم =ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ، وأساسه إفهام المخاطب، فهي أيضا =أن تفهم المخاطب بقدر فهمه من غير تعب عليك.+(4) وقد

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص75 .
(2) المصدر نفسه، ص113 .
(3) محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطاب في القرن نموذجا، إفريقيا الشرق، ط2، المغرب، لبنان، 2002، ص21 .
(4) ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح : محمد عبد القادر أحمد عطا، منشورات

أورد ابن خلدون في مقدمته : =إذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة.+(1)

أمّا بلاغة الكلام فمحصولها حسب =الإبانة في الإبلاغ عن ذات النفس على أحسن معنى، وأجزل لفظ، وبلوغ الغاية في المقصود بالكلام، فإذا بلغ الكلام غايته في هذا المعنى كان بالغا وبليغا.+(2)

والملاحظ مما سبق ذكره أنّ المتكلم حقا قد حظي بدور بارز في البلاغة العربية، بوصفه منتج الخطاب، ولأنه وحده الذي يستطيع تحديد الدلالات ومقاصدها، وقد =قام الدرس العربي عموما والبلاغي بشكل خاص من بداياته على الاعتداد بمجموع العناصر المساهمة في تشكيل الدلالة بما فيها المتكلم، وما ينبغي أن يكون عليه من علم بأحوال الخطاب المختلفة، ودراية بأقدار السامعين ومنازلهم بحيث يخاطب، كلّ سامع بما يناسبه.+(3) ومن أحسن ما يرتبط بالمتكلم من قيم تداولية، أنهم ميزوا بينه وبين الكلماتي، وعرفوا المتكلم بأّنه =هو فاعل الكلام.+(4) وهو تعريف تداولي مرتبط بانجازه الفعل الكلامي حقيقة في الواقع، ولا يعدّ متكلما إلاّ بذلك .

ولا فرق بين ما ذهب إليه أوستن في بداية تأسيسه لنظرية أفعال الكلام، بافتراضه قسما جديدا سماه =الأفعال الإنجازية+، وبين ما ذهب إليه ابن رشد حين ربط الكلام بالفعل، يقول : =الكلام ليس شيئا أكثر من أن يفعل المتكلم فعلا يدلّ به المخاطب على العلم الذي في نفسه، أو يصير المخاطب بحيث ينكشف له ذلك العلم الذي في نفسه، وذلك فعل من جملة أفعال الفاعل.+(5)

محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2001، ص244 .

(1) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 2003، ص574 .

(2) الشريف الجرجاني، كتابات التعريفات، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، 2000، ص47 .

(3) خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص163 .

(4) أبو هلال الحسن العسكري، الفروق في اللغة، تح : لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط4، بيروت، لبنان، 1997، ص27 .

(5) ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، ص55، نقلا عن : عبد السلام المسدي التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط2، 1986، ص287 .

ومما يرتبط به أيضا ـ أي بالمتكلم ـ القصد في الكلام والإبلاغ، وقد كان له مكانة بارزة في الدرس البلاغي والدرس العربي عموما على تعدد معانيه، حتّى أنّه أساس عملية التواصل والإبلاغ، ويقوم عليه تمييز المتكلم فيها =إنّ المكلم لغيره إنما يحصل مكلما له بأن يقصده بالكلام دون غيره، ويكون آمرا له، متى قصده بالكلام، وأراد منه المأمور به. . ..+(1)

وهو ما أكدّ عليه ابن خلدون حين قال : =اعلم أنّ اللغة في المتعارف عليه هي عبارة المتكلم هي مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام.+(2) وهذا من أحسن تعريفات اللغة التي ربطتها بالاستخدام والأداء الفعلي لها من المتكلمين المبني على إرادتهم، ويقول أيضا : =ويبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة، أحوال المتخاطبين أو الفاعلين، وما يقتضيه حال الفعل، وهو محتاج إلى الدلالة عليه، لأنّه من تمام الإفادة ـ وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة في كلامه.+(3) فعلى المتكلم أن يكون عارفا بالواقعات وأحوال الكلام وظروف التخاطب .

2- ج ـ تداولية الخطاب في البلاغة العربية : الإنشاء والخبر ونظرية أفعال الكلام :

تتلاقى التداولية في كثير من المفاهيم مع البلاغة القديمة منذ أرسطو حتى وقتنا الحالي، لاسيما مع البلاغة العربية في دراستها للإنشاء والخبر في باب المعاني وعلاقتهما بالخارج، فالخبر ما احتمل الصدق والكذب بالنظر إلى درجة مطابقته للخارج أو مخالفته، أمّا الإنشاء فلا يرتبط مفهومه بالصدق أو الكذب، ويتميز بأنّ مدلوله يتحقق بمجرد النطق به والطلبي منه =ما يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب لامتناع طلب الحاصل.+(4) وهي الفكرة نفسها التي عرضها أوستن في مبحث الأفعال الكلامية، حيث ثار على آراء الوضعيين، وميز بين نوعين من الأفعال التقريرية والإنجازية من حيث تحققها في

(1) القاضي عبد الجبار، المغني، ج72،
(2) ابن خلدون، المقدمة، ص565 .
(3) المصدر نفسه، ص ص 545- 546 .
(4) السيوطي جلال الدين عبد الرحمن، شرح عقود لجمان في علم المعاني والبيان، وبهامشه/أحمد الدمنهوري، اللب المصون على الجوهر المكنون، دار الفكرة للطباعة والنشر والتوزيع، دط، بيروت، لبنان، دت، ص48 .

الخارج وموقف المتكلم . يقول أحمد المتوكل : =من المعلوم أن الفكر اللغوي العربي القديم يتضمن ثنائية الخير والإنشاء التي تشبه إلى حد بعيد الثنائية الأوستينية (الوصف/ الإنجاز) كما يدل على ذلك تعريف القدماء للخبر والإنشاء.+(1)

2-د - البلاغة والحجاج : البلاغة الجديدة :

ولد مصطلح =البلاغة الجديدة+ عام 1985م، في عنوان أحد الكتب الشهيرة التي وضعها المفكر البولوني =بيريلمانPerelman+ تحت اسم =مقال في البرهان : البلاغة الجديدة+، ويعتمد هذا الكتاب على محاولة إعادة تأسيس البرهان، أو المحاجة الاستدلالية باعتباره تحديدا منطقيا بالمفهوم الواسع، كتقنية خاصة ومتميزة لدراسة المنطق التشريعي والقضائي على وجه التحديد، وامتداداته إلى بقية مجالات الخطاب المعاصر، والهدف من نظرية البرهان Argumentation لديه هو =دراسة تقنيات الخطاب التي تسمح بإثارة تأييد الأشخاص للفروض التي تقدّم لهم، أو تعزيز هذا التأييد على تنوع كثافته.+(2)

ولطالما ربطت البلاغة الغربية بين الحجاج والبلاغة، ورد في قاموس تحليل الخطاب : =الحجاج موجود في قلب المفهوم القديم للبلاغة.+(3)

وقد حلل مشال ميار علاقة الحجاج بالبلاغة على مستويين :

- بنية الصور البلاغية .
- العلاقة البلاغية .

فعلى مستوى بنية الصور البلاغية، لا يرى ميار في الصور البلاغية تنميقا وزخرفة فحسب، بل هي عوامل تساهم في الإقناع، فالمجاز مثلا =يخلق المعنى ويصدم كل من لا يشاطر المتكلم وجهة نظره.+(4)، فالصورة إذا وجدت في نص ما فهي تبعث على التساؤل،

(1) أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية، مدخل نظري، ص37 .
(2) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص97 .
(3) أرسطو، الخطابة، تح : إبراهيم سلامة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، القاهرة، 1953، ص85 .
(4) محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لمشال ميار، (من أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى يومنا هذا) / منشورات كلية الآداب، جامعة منوبة، تونس، دت، ص395 .

وتفسير المتلقي يشكّل تساؤلا آخر .

أمّا على مستوى العلاقة الخطابية، فقد استوحى ميار من الخطابة الأرسطية العناصر الثلاثة : الإيتوس، والباتوس، واللوغوس، مختزلا العنصرين الأول والثاني في الأخلاق، ومقسما العنصر الثالث إلى سؤال وجواب . وتتجلى لنا هنا صلة الحجاج بالبلاغة الأرسطية في تقسيم أرسطو للحجة إلى أربعة أنواع :

أ ـ الإيتوس : وهو =مجموع الخصال المتصلة بالخطيب والمؤدية إلى إحلال الثقة في الجمهور.+(1) فلأخلاق الخطيب تأثير كبير في المتلقي إذ =تنتهي به إلى الإقناع حينما تكون الخطبة محضّرة بشكل تبعث على الثقة، ويملأ نفس الخطيب بالطمأنينة.+(2)

ب ـ الباتوس : ويقصد به =ما ينبغي أن يثيره الخطيب في الجمهور من المشاعر والأحاسيس تحقق إقتناعه وتسليمه بمحتوى الخطاب.+(3) ف =لاستعداد السامعين أهمية حينما تهيج الخطابة من انفعالاتهم.+(4)

ج ـ اللوغوس : وهو =الخطاب نفسه، ويعبّر عنه اللغويون المحدثون بالرسالة التي يلعب فيها الأداء اللغوي دورا حاسما في تحقيق هذه الاستمالة، سواء بجمالية الخطاب أو بسطوة الحجاج العقلي أو بهما معا.+(5)

د ـ التوبيك أو المواضع : ويؤكد على أنّه =لا يمكن الإتيان بالأدلة والبراهين إلّا إذا وقفنا عند حدود المواضع العامة.+(6)

لقد حظي أيضا الحجاج بمكانة مهمة، وله جذور ضاربة في البلاغة العربية، ويتجلى لنا ذلك في بعض التعريفات التي أسندت للبلاغة، كتعريف العتابي الذي نقله الجاحظ والذي مفاده : =البلاغة إظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق.+(7)

(1) محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لمشال ميار، ص398 .
(2) أرسطو، الخطابة، تح : إبراهيم سلامة، ص85 .
(3) محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لمشال ميار، ص398 .
(4) أرسطو، الخطابة، ص85 .
(5) محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لمشال ميار، ص 398 .
(6) أرسطو، الخطابة، ص79 .
(7) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص220 .

فالبلاغة إقناع سواء كان ما نصدقه حقاّ أو باطلا . أمّ ابن المقفع فيرى أنّ البلاغة =اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل.+(1)

فقد كانت جمالية الشعر في النقد العربي القديم مرتبطة بدرجة إقناع السامع، وذاك ما استنتجناه من بعض الحوادث التي تناقلتها أمهات الكتب القديمة، ومنها قصة كعب ورسول الله عليه الصلاة والسلام، حيث التمس العفو بقصيدة البردة، فغفر له وكان قد أباح دمه، وكذا قصة ليلى بنت النضر ابن الحارث ابن كلدة لمّا عرضت للنبي عليه الصلاة والسلام وهو يطوف بالبيت، استوقفته وجذبت رداءه حتّى انكشف منكبه، وأنشدته أبياتا بعد مقتل أبيها، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : =لو كنت شعرها هذا ما قتلته.+(2) فقد أقنع الشعر بجماليته وسحره النبيّ عليه الصلاة والسلام على العفو عن الكثير ممن أجاز فيهم القتل .

وقد توصل صابر الحباشة في معرض حديثه عن صلة الحجاج بالبلاغة إلى أنّ الحجاج =ليس علما/ فنا يوازي البلاغة، بل هو ترسانة من الأساليب والأدوات يتمّ اقتراضها من البلاغة (ومن غيرها كالمنطق واللغة العادية)، ولذلك فمن اليسير الحديث عن اندماج الحجاج مع البلاغة في كثير من الأساليب، ولمّا كان مجال الحجاج هو المحتمل وغير المؤكد والمتوقع، فقد كان من مصلحة الخطاب لحجاجي أن يقوي طرحه بالاعتماد على الأساليب البلاغية والبيانية التي تظهر المعنى بطريقة أجلى وأوقع في النفس.+(3)

الخاتمة :

وفي ختام هذه المداخلة ومن خلال العناصر المتطرق إليها، نؤكد أنّ هناك علاقة وثيقة بين المعالجتين البلاغية والتداولية، فكلاهما ترميان إلى النظر في أحوال المتخاطبين أثناء الحديث ضمن الترسيمة

(1) المصدر نفسه، ص116 .
(2) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص44 .
(3) صابر الحباشة، التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، ط1، سوريا، 2008، ص 50 .

التواصلية، فالعلاقة بين المرسل والمتلقي التي حرصت البلاغة في إبرازها قد وجدت طريقها في حقل التداولية التي عنيت بالسياقات المختلفة وأطراف الموقف التواصلي، الأمر الذي نجد له حديثا في البلاغة العربية بما يعرف بمطابقة الكلام لمقتضى الحال .

وما كانت التداولية إلاّ أنموذجا دالا على استمرارية المعالجة البلاغية في احتضانها للنص الأدبي وتحليله وفق أسسها ومبادئها، تحت لواء المناهج النقدية الحداثية، مما ينفي عنها صفة الجمود وبل الزوال التي بات الكثير من الدارسين يلحون عليها .